تجليات الرمز في الخطاب الشعري المعاصر قصيدة أمشاط عاجية لمحمود درويش نموذجا

أ. زيان حفصة
جامعة الأغواط

الملخص

يتناول هذا المقال بالدراسة ظاهرة الرمز عند محمود درويش وذلك بالوقوف على كيفية اشتغاله ضمن الخطاب الشعري من حيث طبيعة وأبعاد تشكله في ظل اللغة والتاريخ.

يكتب درويش من خلال قصيدته تاريخ وطن تمتد جذوره عميقا ضمن الحضارة الإنسانية وذلك من خلال توظيف الرمز الذي يصنع حدود التأويل وإعادة القراءة التي تبدأ في الماضي ليعاد تشكلها بطريقة مختلفة في الحاضر.

Cet article étude le phénomène du symbole chez Mahmoud Darwich en s'arrêtant sur la façon de son fonctionnement dans le discours poétique, selon la nature et les dimensions de sa formation au sein de la langue et de l'Histoire.

A travers son poème, Darwich écrit l'Histoire d'un pays qui a des racines qui s'étendent profondément dans la civilisation humaine en faisant recours au symbole qui crée les limites de l'interprétation et de la relecture qui commence dans le passée et qui se reformule différemment au présent.

الكلمات المفتاحية: الرمز ،الرمز اللغوي،الرمز التاريخي ،الخطاب الشعري،التأويل.

مقدمة:

الخطاب الشعري نسق من الأنساق التي تتعدد فيه دلالات العنصر الواحد، بل هو أشد الأنساق الخطابية تطرفا ،كونه شديد الانحراف عن لغة الاستعمال ، إذ كثيرا ما يقف القارئ مشدوها شاعرا بغرابة ما يقرؤه حين يتعامل مع قصيدة حداثية ، خاصة حين لا يكون لديه رصيد كاف من الاطلاع والمعرفة، مما يسمح له بإدراك حيثيات القصيدة بل إنه يشعر أحيانا أنه أمام طلاسم و ألغاز لغوية تعجزه و تجعل من القصيدة أحجية معقدة .

تتجلى في هذا النوع من الخطابات مقصدية ، تهدف بالدرجة الأولى لدفع المتلقي على المشاركة في صنع المعنى بتحويله إلى فاك للرموز خاصة حين يتعلق الأمر بخطابات تخترق المألوف .هذا الخرق المنظم هو الذي يحدد في واقع الأمر الفرق بين اللغة الشعرية واللغة العادية.إن الانزياح وتعدد اللغة بالنسبة للغة العادية هو من مميزات الخطاب الشعري،فكل مفردات اللغة يمكن "استخدامها استخداما رمزيا ولا تكون هناك كلمة هي الأصلح من غيرها لتكون رمزا إذا المعول في ذلك على استكشاف الشاعر للعلاقات التي تربط الشيء بغيره من الأشياء" (عز الدين إسماعيل، 1978: 198)

لقد أصبح ما يمكن تسميته بالاستعمال الملتوي للغة في كثير من الأحيان الشغل الشاغل لكثير من الشعراء العرب، حتى أفرط بعضهم في الغموض والانزياح إلى أن فقد الخطاب عنصره الأساس وهو المتلقي كون الرسالة غامضة وغير مشتركة ،وقد تبنى الشعر الحديث الرمز كتقنية من التقنيات الحداثية التي تلعب على وتر التأويل والقراءات المتعددة الرمز الذي يكرس لعلاقة المبدع بالنص كونه:مرتبط كل الارتباط بالتجربة الشعورية التي يعانيها الشاعر والتي تمنح الأشياء مغزى خاصا" (أحمد فتوح أحمد، 1984: 04)

كما يرتبط في الجهة المقابلة بالمتلقي ، كونه شريكا خطابيا يتحمل مسؤولية القراءة والتأويل ،معتمدا في ذلك على تفاعل الرموز فيما بينها وعلى ما يملك من ذخيرة تمنح له القدرة على ممارسة فعل القراءة.

لقد عرف تشادويك الرمز بأنه"فن التعبير عن الأفكار والعواطف ليس بتوظيفها مباشرة ولا بشرحها من خلال مقارنات صريحة وبصورة ملموسة ولكن بالتلميح إلى ما يمكن أن تكون عليه صورة الواقع المناسب لهذه الأفكار والعواطف وذلك بإعادة خلقها في ذهن القارئ من خلال استخدام رموز غير مشروطة." (تشارلز تشادوبك، 1992: 14-42)

أمشاط عاجية و مأساة ازلية

تحفل قصيدة "أمشط عاجية "بالقيم الإنسانية المشحونة بقيم عاطفية وتاريخية واجتماعية وثقافية، يتجلى فيها وعي درويش بمأساة شعبه وقضيته الأزلية ،كما تتجلى قراءاته المتعدد وإلمامه بالجوانب التاريخية والأصول الإثنية لشعبه وحضارته.ل م يقم درويش بحشو ما استمده من مصادره حشوا إنما شكل نصه بمهارة إبداعية حيث ناغم بين مرجعياته ونصه الجديد من خلال إستراتيجية توظيف بارعة ومميزة.

يعرض درويش بطريقة ملخصة تاريخ فلسطين الحافل بالهزائم والمكابدات القاسية والمكائد المتكررة ،مكائد الصديق قبل العدو تتبني الصورة الشعرية في هذه القصيدة على محورين المحور الأول يلخص محور الهزيمة والشعور بعدم جدوى الحاضر أما المحور الثاني فهو محور الصمود وعدم الاستسلام والخضوع ورفض البيع والمقايضة .الكثير من صور المحور الأول تقابلها صور تناقضها على المحور الثاني :

يقول درويش:

مِنَ القَلْعَةِ انحدَرَ الغيمُ أَزرقَ

نحو الأَزقّةِ...

تتجلى هذه المقابلات بين الماضي والحاضر والغد أيضا بقوله:

لو كان لي حاضرٌ آخرٌ

لامتلكتُ مفاتيحَ أَمسي

ولو كان أَمسي معي

لامتلكتُ غدي كُلَّه

تخرج هذه الصور من رحم الماضي وتدخل في سياق استرجاعي يتفنن في الإبحار عبر المكان والزمان لتظهر في الحاضر رفيقة لصورة الهزيمة والمرارة التي تفسد طعم كل شيء.

الرمز والأنساق اللغوية:

يستعمل الأدب الأشكال الرمزية في كثير من الأحيان مجسدا إياها في نسق لغوي معين يستدعي وجود عالم أوسع يعيش خلف حدود الكلمات وأسوارها ...يمثل الرمز الشعري مستوى آخر من مستويات اللغة كونه يتجاوز الاستعمال العادي المألوف للغة لتأخذ الألفاظ ضمنه دلالات أخرى ضمن الخطاب الشعري ،وهي دلالات يستحيل القبض عليها دون ذخيرة قبلية من المعارف و المعطيات إذ تتحول الألفاظ بفعل التوظيف والتكرار إلى رمز يحصل ضمن سياقاته على استقلالية دلالية تملك سلطة بارزة في مملكة النص الشعري لان الرمز وسيلة إيحائية من ابرز وسائل التصوير الشعرية التي ابتدعها الشاعر المعاصر عبر سعيه الدائب وراء اكتشاف وسائل تعبير لغوية يثري بها لغته الشعرية ويجعلها قادرة على الإيحاء بما يستعصي على التحديد والوصف من مشاعره وأحاسيسه وأبعاد رؤيته الشعرية المختلفة....." (د علي عشري زايد، 2008: 104)

الرمز اللغوي:

قد لا يملك الرمز اللغوي كثافة تاريخية أو مرجعية بالنظر إلى أصوله لكنه يملك بالمقابل كثافة دلالية وطاقة إيحائية ونفسية تتجلى في امتلاك المفردة الواحدة سلطة توجيهية بمقدار ما تبعثه في النفس من إيحاءات وتداعيات.

ترسم القصيدة جملة من العلاقات بين الحاضر والماضي البعيد الذي لا يختلف كثيرا عنه فالغيم الأزرق في بداية القصيدة يوحي بالرغبة في التطهير من خلال تنظيف الشوارع مما التصق بها من درن هذا التاريخ المجحف :

قَلاوونَ, بعد قليلْ سيرتفع الغيمُ أَحمرَ فوق صُفُوف النخيلْ

الشال الحريري بالمقابل مع سرب الحمام يطير بحثا عن الحرية والانعتاق في أجواء أسطورية تصر فيها النفس على تجاوز واقع أليم تشبع بالخيانة و الألم:

شالُ الحرير يطيرُ

وسربُ الحمام يطيرُ

وفي بِرْكَةِ الماء تمشي السماءُ قليلاً

على وجهها وتطيرُ

ورُوحي تطيرُ, كعاملة النَحْلِ, بين الأَزقّةِ

الروح التي تطير خلف سعادة مسروقة تقدم خبزها طواعية للغزاة القادمين من وراء البحار كما فعلت دائما

والبحرُ يأكُلُ من خبزها, خبزِ عَكَّا

ويفرُكُ خاتَمَها مُنْذُ خَمْسَةِ آلافِ عامٍ

هذه الرحلة الغامضة تنسج مراحلها ضمن نسق لغوي خاص ينتقي من القاموس ما يعبر عن هذا الغموض الناجم عن ضبابية المصير ضمن سياق من التغرب واللاوجود .

تظهر لفظة المناديل مرتبطة برمز آخر هو رمز الأم ،المناديل رمز للرحيل الذي يتبع لقطات الوداع :وداع الأرض ووداع الوطن وداع الحبيبة ،وداع يشوبه أمل بالعودة لا يمكن بحال من الأحوال أن يتلاشى مهما طالت المدة لأن النسيان هنا مجرد خرافة لا يمكن أن تتحقق .

يرسم الشاعر هذا الوداع في سياق درامي يجمع بين حدود الزمن والمكان فبين هنا والماضي الذي تم فيه الوداع لا وجود للحدود.

لا خرافة لي هَهنا لأُطلِّق أُمِّي التي

حَمَّلتْني مناديلَها, غيمةً غيمةً, فوق

ميناء عكا القديمة... عند الرحيلْ

يحمل المنديل دلالات مختلفة فهو هدية محببة كما أنه رمز للوداع والغياب أما الأم فهي الوطن الانتماء انتماء لا يريد الشاعر ان ينفصم أو ينتهي حين يخضع الشاعر ويشتري الخرافة التي ستجعله ينسى وطنه الأم .يظهر الطلاق هنا ليجسد معنى الانفصال عن

الأرض أما الخرافة التي تعرف بأنها"حكاية قصيرة (...) تبرز أحداثا وشخصيات وهمية تتراءى من خلالها أحداث وشخصيات واقعية بحيث أن النص يتبع عند قراءتها أو سماعها المعنى الظاهر والباطن في الوقت نفسه." (جبور عبد النور ،1979: 12)

هي في هذه القصيدة قبول الواقع المفروض رغم لا شرعيته ، خرافة الحلم اليهودي والكذبة التوراتية التي لا يريد أي فلسطيني تصديقها وان غادر الأرض مكرها.

تقف لفظة الأمشاط العاجية لترمز إلى الجذور العميقة لهذا الشعب الذي يعود الى الكنعانيين تاريخ عريق لوطن أعرق عرف تعاقب الغزاة و الطامعين من كل حدب وصوب،توحي عبارة االنتقال الصقور على تغير موازين القوى و انتقالها من عالم إلى آخر، غزاة عديدون برا وبحرا حاولوا تملك هذه الأرض التي تعشقها الجميع لكنها رغم ذلك لا تزال هنا واقفة شامخة شاهدة على تعاقب العصور والحضارات:

بين العصور كأنّيَ أَعبُرُ بين الغُرَفْ

أَرى فيَّ محتوياتِ الزمانِ الأليفة:

مرآةَ بِنْتٍ لكنعانَ,

أَمشاطَ شَعْرٍ من العاجِ,

صَحْنَ الحَسَاءِ الأَشوريَّ,

سَيْفَ المُدافع عن نَوْمِ سَيِّده الفارسيِّ,

وقفزَ الصقور المفاجِئَ من عَلَمٍ نحو آخرَ

فوق صواري الأَساطيل

من جهة أخرى يمتثل رمز الأمس في مقابل رمز الحاضر والغد ،أقطاب الزمن الثلاثة محاور سفر الشاعر عبر زقاق الزمن الذي يؤدي إلى الأعلى إلى القمر الغامض الذي يعلو سوق النحاس ،رمز المدينة

غامضٌ سَفَري في الزقاقِ الطويلِ

المؤدي إلى قَمَرٍ غامضٍ فوق سُوقِ

النحاس. هنا نخلةٌ تحمل البرجَ عنّي,
وهاجَسُ أُغنيَّةٍ تنقُلُ الأدواتِ البسيطةَ
حولي, لصُنْعِ تْرَاجِيْديا مُكَرَّرةٍ، والخيالُ

هذه الأدوات النصية رسمت ملامح مأساة مكررة تكاتفت فيها كل الأزمات عبر الأجيال لتصنع المأساة الدائمة مأساة الشعب المهجر الذي عليه أن يترك وطنه لتكريس خرافة وطن لقيط.

الميناء في قصيدة درويش يجمع المتناقضين ،فهو المنفذ نحو الوطن لكنه أيضا منفذ الأعداء نحو هذا الوطن يحمل دلالتين مختلفتين :دلالة الانطلاق ودلالة الاحتلال والغزو دلالة الخرافة التي يريد المحتل أن يفرضها في مقابل الخبز وهي مقايضة مرفوضة بكل المقاييس :

لا خرافةَ لي ههنا. لا أُقايضُ
آلهةً أو أُفاوضُ ألهةً. لا خرافةَ
لي ههنا كي أُعبِّىءَ ذاكرتي بالشعيرِ
وأسماءِ حُرَّاسها الواقفين على كتفيَّ
انتظاراً لفجر تُحُتْمُس. لا سيف لي

من جهة أخرى ترسل الرموز اللغوية في القصيدة إلى حقيقة مفادها ألا جدوى من انتظار الغير الذي قد يحقق الأمل: أمل مبتور قعيد لا يستطيع الدفاع عن نفسه إذ لا سيف له.

اللون الأحمر الذي لون قمر الشاعر رمز للعذاب للدماء التي فقدها هذا الشعب منذ بدء المأساة ، وتحوله من اللون الأزرق إلى الأحمر بعد انحداره من القلعة إنما هو رمز لذلك التغير الكبير في واقع الأمور من الصفاء والطهارة اللذان يوحي بهما اللون الأزرق نحو الموت والدماء التي يوحي بها اللون الأحمر، فرحلة الشاعر بين العصور رسمت مظاهر معاناة هذه المدينة من عصر إلى آخر رسمت أيضا تحول الأمل الذي كان بلون الزرقة إلى لون قاتم من الحمرة يسيطر على المشهد .

هذه الرموز وغيرها مما ضاق المجال عن ذكره ترسم خطاطة القصيدة ضمن محورين محور المدينة والماضي كمؤشرين للزمان والمكان ، محاور أساسية في هذا النص ،إنها رموز تتناغم فيما بينها خالقة مناخا نفسيا وفكريا مما يجسد بنى النص العميقة التي تجعل منه فضاء واسعا يحمل دلالات عديدة ترتبط في أغلبها بالأرض وإشكالية استمرار الحياة وأحقيتها عليها .

الرمز التاريخي:

"الأحدث التاريخية ليست مجرد ظواهر كونية عابرة ،تنتهي بانتهاء وجوده الواقعي فإن لها إلى جانب ذلك دلالتها الشمولية الباقية، والقابلة للتجدد على امتداد التاريخ في صيغ وأشكال أخرى ...." (د علي عشري زايد، 2006،ص:12)

المقصود بالرمز التاريخي هو تلك الأسماء والأماكن والإشارات التاريخية التي تشكل السياق الشعري في النص محملة بدلالات تاريخية معينة يحاول الشاعر تحويرها وتعديلها ومجرد حضور هذه الرموز يستدعي وجود معارف تدعم دلالات النص وتعمقها إن الرمز هو الأرضية التي يبرز من خلالها الشكل الذي يريد المبدع تقديمه .

يلاحظ المتتبع لشعر درويش ميلا شديدا لديه لتوظيف كل أنواع الرموز مع قدرة مميزة لديه في امتصاص دلالات الرمز والتحكم في أبعاده الفنية والدلالية ،وفي هذه القصيدة نستطيع ملاحظة محورين يستقطبان الرموز : فلسطين كدولة عتيقة و المحتل كواقع ما انفك يظهر ويتكرر .يشير النص إلى الحروب الصليبية التي كان هدفها الحصول على أورشليم تحت ذريعة الحرب المقدسة وذلك من خلال استحضار ميناء عكا بحكم أن استيلاء المسلمين على عكا ،قوض الحلم الصليبي باستبقاء الحامية الصليبية على ساحل الشام والإبقاء على فرص احتلال فلسطين من جديد وذلك بعد جهود و تضحيات بدأها الناصر صلاح الدين وأكملها قلاوون وابته خليل الأشرف والظاهر بيبرس .لكن الأمور تغيرت كثيرا بعد مرور هذه الأزمنة فالأكذوبة اليهودية تصبح حقيقة بفعل دعم القوى الغربية و تصديق العربي للوهم:

ستحدث أشياءُ أُخرى,

سيكذبُ هنري على

قَلاوونَ, بعد قليلْ

سيرتفع الغيمُ أَحمرَ فوق صُفُوف النخيلْ

يكتب درويش من خلال رموزه تاريخا آخر لهذه الأرض ،التي يسجل من خلال قصيدته أهم المحطات التاريخية التي مرت بها هذه الأرض المقدسة .فلسطين كانت قبلة الغزاة بسبب قدسيتها التي أغرت الجميع عبر العصور .غزاة كثر مروا من هناك وحاولوا دمج هذه الأرض ومزاوجة حضاراتهم بحضارتها .فلسطين موطن الكنعانيين منذ القرن الثالث قبل الميلاد سوق تجاري للحضارة الأشورية كما كانت موقعا لمن والوا الفرس ووقفوا هناك لحماية مصالحهم .

الماضي المجيد لهذه الأرض ، كان سيبني حاضرا مميزا لو امتلكنا مفاتيحه لكن للأسف فلسطين أصبحت مسرحا لتراجيديا متكررة ،موغلة في الألم والقدم. من لا يهتم لا يدرك أبدا ما قد سيحصل في احتفالات يوليوس قيصر، احتفالات يلقى فيه العبيد ليواجهوا مصائرهم أمام حيوانات متوحشة في معركة غير متكافئة ، هكذا كانت المعركة بين هذا الشعب المستضعف و تلك الحيوانات التي أطلقت عليه بمباركة من القوى العالمية والتي لا تنفك تنهش لحمه دون أن يهتز للضمير الإنساني جفن.يوظف الشاعر رمزي قلاوون و هنري توظيفا عكسيا مما يولد احساسا بالمفارقة من خلال تحويل الأمور الى العكس إذ يتعرض قلاوون للخديعة من طرف هنري مصدقا كذبته لتضيع المدينة في هذا الزمن المعاصر بعد أن استردها المسلمون قديما من الصليبيين.

هذه الرحلة الطويلة بكل محطاتها تحمل في طياتها أملا دفينا و إحساس عميقا بالمرارة، لا بد للمرتحل يوما من ميناء يرسو عليه هذا هو ميناء عكا الذي غادره مكرها ،ميناء عكا الذي ارتبط دائما بمحاولات السيطرة على ارض فلسطين ، فعكا كانت قاعدة فرسان القديس يوحنا التي فتحها العرب فازدهرت واشتهرت . عكا كانت قاعدة فرسان القديس يوحنا التي

فتحها العرب فازدهرت واشتهرت بمقاومتها ، هذه المدينة تعرضت أيضا لحصار نابليون بونابرت مدينة ذات بصمات في تاريخ الأمة ، ميناؤها رمز للعودة و الرجوع كما كان رمزا للرحيل والفراق والشتات .

إن العودة إلى الوطن لن تكون أيدا بقبول المقايضة بالغذاء أو بانتظار الوهم ففجر "تحتمس" لن يأتي ، تحتمس هذا القائد الفرعوني الذي انتصر على السوريين واحتل فارس وفينيقيا لن يشرق فجره من جديد ، والحلم لن يتحقق آتيا من مصر أو من غيرها من البلدان العربية لأن السياسيات المتخاذلة أجهضت كل حلم ،مطالبة هذا الشعب بتحقيق الأكذوبة الصهيونية الكبرى وترك الأرض التي سعى اليهود إلى اجتثاثهم منها بحجة السلام مقابل الأرض .

خاتمة:

إن هذه الرحلة بكل محطاتها تحمل معها مشاعر مختلفة شعور بالاشتياق للوطن ،لماض جميل يمتزج معها شعور بالمرارة بسبب واقع مظلم وانهزامي هذه الرحلة كان لا بد أن تنتهي لكن كيف يمكن إنهاؤها وقد صنع الزمان ديمومتها ؟ يستدعي الشاعر تاريخا جملة من الرموز التاريخية التي تماهت مع هذه الأرض ويكيفها لصناعة واقع جديد واقع من التيه والاغتراب واقع يسير فيه صاحبه دون أن يدرك إلى أين ستقوده رحلة الشتات التي فرضت عليه .

المراجع:

1. أحمد فتوح أحمد،الرمز والرمزية والشعر المعاصر،ط:3،دار المعارف ،القاهرة،1984.

2. تشارلز تشادوبك،الرمزية،تر:تسنيم يوسف إبراهيم،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة،1992.

3. جبور عبد النور:المعجم الأدبي ،دار العلم للملايين،بيروت ،ط:1، 1979.

4. د علي عشري زايد:استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي لمعاصر،دار غريب للنشر والتوزيع، 2006.

5. د علي عشري زايد،عن بناء القصيدة العربية الحديثة، مكتبة الآداب، ط:2008،5.

6. عز الدين اسماعيل:الشعر العربي المعاصر قضاياه و ظواهره الفنية والمعنوية،دار العودة بيروت،1978.

7. محمود درويش ديوان لماذا تركت الحصان وحيدا ، الأعمال الكاملة، نسخة الكترونية.